الحضارة الحثية

نواحيها الصناعية والتجارية

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

التجارة

يؤخذ من مخطوطات الكابادوك ان الحثيين كانوا منذ اقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الاولى وعلى اتصال وثيق بسائر امم الشرق يتاجرون معها بشتى الاصناف اهمها الاصواف والماشية والمعادن وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم وعقود يتقاضون بها حاجاتهم وكانت تزن قطعة نقدهم الكبرى ستين مثقالاً من الفضة وقد عثر لهم على عقود بيع وشراء وتسليف على بضائع وقروض مقابل رهونات مدونة على الآجر واستدل من بعض النصوص على وجود محل في الحواضر الكبرى يدعى كاروم اشبه بالغرف التجارية المعروفة في ايامنا يتم بتبين معدل فوائد القروض بين التجار ويعد المرجع الأعلى لحسم الخلافات التجارية وكانت معظم قيودهم تختم بالرصاص [illegible] وكانت وعدائهم معينة بخمسة ايام عوض اسابيعنا الحالية تقريباً وعقودهم انهُ اشق على ايفاء القرض الفلاني بعد مرور تسع خمسات اي بعد خمسة واربعين يوماً

وعندما تقدموا في مضمار الحضارة مهروا في تقنية المعادن وصياغتها فصارت تجارتها تدر عليهم ارباحاً طائلة وقد اهتموا بها حتى ملوكهم فأخذوا يطلبون الى فراعنة مصر ارسال سبائك ذهبية ليصوغوا لهم منها حليًّا في معابدهم الملكية مقابل اجر يحسبونهُ من اصل البضاعة . ثم تفننوا في القرن الحادي عشر صنع الاسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد الذي كانوا يستخرجونه بكثرة من مناجم اسيا الصغرى وجعلوا معامل هذه الصناعات ومحال الصاغة الكبرى ملكاً للدولة واخذوا يتاجرون بمصنوعاتها مع سائر امم الشرق وقد عثر العالم الاثري

المسيو تورو دانجان في حفريات تل برسيب عن رسالة ملك حتي جواباً الى ملك غير معروف يقول لهُ فيها: « لقد اوعزت الى معاملي بأن تصنع ما اوصيتم به من اصلح انواع الحديد فعندما يتم عمله سوف ارسله اليكم » وأصحب رسالته خنجراً من الحديد كنموذج وقد كشف التنقيب عن اشياء كثيرة من تلك المصنوعات كالطواق والآلات والسلحة والصنام وتماثيل وتمائم مرصعة بالذهب

وقد كان الامن مستتبًا على طرق مواصلاتهم التجارية والثقة موطدة تقطع قوافلهم المسافات الشاسعة وتقضي فيها اياماً وليالي من غير ان تخشى بأساً ولم تكن طرقهم مستقيمة على شاكلة الطرق الرومانية بل كثيرة الالتواء كشبكة ترتبط بكل البلاد الحثية بعضها ببعض وتدلنا الآثار التي شادوها على قارعة هذه الطرق على اتساع حلقة تجارتهم وبعد مداها في غربي مملكتهم كما انهُ في الجهة الشرقية كانت كركيش متقدمهم على الفرات وعقدة مواصلاتهم مع بلاد ما بين النهرين

الصناعات والفنون

لا غرو انهُ لا يمكن ان يبلغ شعب من الشعوب مستواهُ الراقي في الفنون والصناعات ما لم يجتز سلسلة من المراحل الابتدائية . لذلك نشاهد في آثار الحثيين تفاوتاً في درجات رقي فنونهم وصناعاتهم يختلف باختلاف العهود التي ترتدُّ اليها . فيجدر بنا والحالة هذه ان نقسم هذه الفنون والصناعات الى قسمين نطلق على الاول اسم الفن الحثي الآسيوي وعلى الآخر الفن الحثي السوري نظراً الى ما لكل من هذين القسمين من عهود متفاوتة وميزات خاصة . فبينما يكاد يكون الاول مشتقاً من الفن السومري لكثرة وجوه التشابه بينهما نرى على الثاني نسخة من الفن الاشوري تزداد بروزاً مع تقدُّم عهود التاريخ حتى تنفذ منهُ الى الصميم . على أن هذه التأثيرات لم تحل دون تكيُّف الفنون والصناعات الحثية وتطبع بطابع خاص جعلها موضوع بحثنا في خطوطه العامة

(فن العمارة) فاذا أخذنا بفن العمارة وهو من أهم العوامل في درس مدنية الشعوب دلتنا الآثار الحثية الباقية على عبقرية الشعب الذي شيدها . فقد امتازت عمائر الحثيين باستقامة خطوطها الساذجة وضخامة قواعدها وتوسط ارتفاعها وتناسبه مع امتدادها وتجلت هذه الأوصاف خاصة في الآثار التي اكتشفت في بوغاز كوي وهوبوك كما بدت على انقاض قلعة كركيش

ومن أروع تلك الأدلة على قولنا حصون حاتوشا وأبوابها الحجرية التي تم بضخامتها وصلابة بنائها على ما كانت عليه تلك العاصمة القديمة من القوة والمناعة وقد قامت في وسطها تلتان على ذرى رابيتين تحيط بهما أسوار غليظة يبلغ سمك جدرانها اربعة امتار ونصف متر وهي مبنية بأحجار كبيرة الحجم متراصة تتخللها دعائم على مسافات متوازية تزيدها متانةً ينفذ منها باب حجري مستطيل الى قباب طويلة مزخرفة الجدران برؤوس اسود بارزة كأنها قائمة على

حراسة الابواب ويخرج من هذه القباب الى فناء داخلي تتفرّع منهُ سائر المشتملات من أبهاء وغرف وهياكل

ومما اكتشف ايضاً في حفريات بوغاز كوي بقايا قصور تيسر معرفة شكلها الهندسي بفضل بقاء جدران طبقها الاولى فوجدت مبنية بأحجار جسيمة الحجم يتألف داخلها من رواق طويل ينتهي الى فسحة مكسوة بالبلاط توسطها بناية كبيرة يلوح من زخارف انقاضها انها كانت مبدأ في قلب القصر وتقوم في غرب هذه البناية غرف كثيرة تشرف على الفسحة المذكورة وتمتاز هذه الأبنية الحثية بأسسها العميقة خلافاً للابنية الاشورية التي كانت تقوم على سطح الارض

فيستنتج مما تقدّم ان الحثيين بالغوا في صلابة بناء عماراتهم الكبيرة التي كانت من الصخر الصلد وحاطوها بكل ضروب التحصين وجهدوا في أن تكون غايةً في المناعة ويظهر انهم بذلوا معظم جهدهم في تشييد قصور الملوك ومعابد الآلهة توخياً لرضاء أربابها

(الحفر والنقش) وقد تفرق الحثيون في الاستكثار من الحفر والنقش على آثارهم حتى انتشرت نقوشهم في جميع أنحاء الاناضول وسوريا الشمالية على ان فنها لم يكن متجانساً في كل الامكنة على السواء . ففي يازيلي قايه وبوغاز كوي القديمتين تراه أقل رقيًّا مما هو عليه في كركميش وزنجيرلي . فبينما كان الحفار الحثي يتعسر همه في البدء على اخراج نقوش ناتئة اخذ يمعن على مرور الايام بنحت الاجسام والتقرب من تصوير الحقيقة ويجهد في محاكاتها فبرز في بسط اعضاء الجسم وصار لهُ ميزة خاصة بأسلوبه ومبتكراته ثم نحا آخر نحو الرقة وكاد يضاهي في بعض الآثار نقوش المصريين الرائعة

ومما كان من امهر خصائصه تصوير الحيوانات حيث توصل بها الى محاكاة الشبه بامانة تكاد لا تصدق فخص منها نقوش الأسود التي برع في تمثيلها واكثر من صفوفها على ابواب قلاعه وقصوره ومعابده . فمنها تبدو لك جالسة وقد بطحت ايديها الى الامام كأنها تعبة من طول السهر وقد بانت اعضاء جسمها كافة فتكاد تعد اضلعها ومنها تراها منتصبة كأنها تتحفز للوثوب وقد فتحت اشداقها لتزأر فترتاع من هول مشهدها . وهنالك نقوش كثيرة على جانب عظيم من المهارة تمثل كلاباً تطارد سرب غزلان ومشاهد قنص وصيد قلَّ مثيلها في محاكاة الطبيعة مثل نقش مويوك الذي ظهر فيه رجل يعدو هرباً من نشابة الصياد . وقد اقام الحثيون تمثالاً لابي الهول المصري في عاصمتهم الاسيوية ونقله المكتشفون الى متحف استامبول حيث يشاهد مرتمياً من الكسر ذا جسم عنيّ ووجه بشري بهم كبير يحاول الابتسام

اما سائر النقوش فقد تنوعت موضوعاتها الى حدٍّ لا يحصر وأتيح لنا ان نتتبع مبدعيها في حفلاتهم وطقوسهم واعمالهم وفي كل امرٍ من امورهم . ففي بوغاز كوي عثر على قاعدتي تمثال من حجر

الجص مزينتين بنقوش تمثل في احداهما رجلاً ملتفاً برداء وفي الاخرى فاتحاً الرداء وهو واقف وقفة تعبد وابتهال امام هيكل يشبه مقصداً كثير القبوب اكتشف له مثال من الفخار في معابد اشور وتبين ان كثرة قبوبه تساعد في عرف الاشوريين على ظهور ارواح الاجداد من نوافذها

وقد تعرفنا بفضل نقوش أخر تعطي صدوغ احد ابواب مدينة حاتوشا الى ملك محارب حليق الذقن يكسوه قميص حريري مشدود تكاد تبرز من تحته عضلات صدره الواسع. اما رأسه فتعطى بخوذة بيضوية الشكل يحتذي موقاً معكوف الاقب ويحمل في طيات حزامه العريض خنجراً معوجاً بقبضة مزخرفة وقد امسك بيده اليمنى المقربة من صدره فأساً ذا حدين اما يده اليسرى فتراها مطبقة القبضة دلالة على شدة بأسه وهو في وقفة تخاله فيها يتأهب للشي

وهنالك نقش آخر يرينا الآلهة النباتات القروي محملاً بعناقيد العنب وقد امسك بيد عنقوداً كبيراً وفي الاخرى حزمة من سنابل الحنطة كأنهُ يشير بها الى ملك واقف امامه وقفة الخشوع والاحترام

وفي بازيلي قايه صور اشكال من الطفوس نقشت على سلسلة من صخور جبلية يسترعيك بينها مشهد يمثل مواكب من الآلهة والملوك والملكات وقد وقفوا في صفين متقابلين يتقدمهم اله عظيم على رأسه تاج عال وقد امسك بيده اليمنى قبضة من الاسلحة وأشاح باليسرى الى الهة الشمس الواقفة قباله مما فسره العلماء بحفلة زواج احد الملوك وارتقائه الى مصاف الآلهة

وفي محل آخر نرى الهاً شابًّا ممسكاً بيده اليمنى شارة الملك وقد لف الاخرى حول عنق اله اصغر رمزاً الى حمايته ويجدر بنا ان نشير ايضاً الى بعض آثار هويوك التي تمثل مشهد تطواف كهنة بأسلحتهم الرسمية حول ذبيحة مقدمة على هيكل بحضور الملك والملكة . وان نتوه بمشهد آخر يمثل الآلهة قاعدة في مجلس طرب وقد التف حولها ناحو الا بواق وسائر المطربين ولا يفوتنا الى ان نلمح في الختام الى المشاهد الطقسية العديدة التي وجدت في ارسلانتيه وكركميش وفي غيرها مما لا يعد ولا يحصى

﴿صناعة المعادن﴾ عرف الحثيون صناعة المعادن من اقدم عصورهم فصاغوا من سبائك النحاس تماثيل وأصناماً صغيرة كما طرقوا الحديد وصنعوا منهُ الرقائق المصورة والتماثيل وخلطوا الخارصيني بالنحاس وركبوا من مزيجهما الشبه وسكبوا منهُ آنية وكؤوساً ودمى طلوها بالذهب والفضة واذابوا الفضة واستعملوه لبصم اختامهم وصهروا سائر المعادن واستخدموها في صناعاتهم . يشهد لنا بذلك ماخلفوه من شتى الآثار التي وسموها بميسمهم الخاص وقد كثرت فيها تماثيل الآلهة المستطيلة ظهور حيوانات ومعظمها سليم الذوق ودقيق الصنع

﴿صناعة الفخار والخزف﴾ وقد اتقنوا كذلك صناعة الفخار والخزف وتفننوا في منتجاتها

فتمازت مصنوعاتهم باناقة اشكالها وزخرفتها وجمال تلوينها ولاسيما الآنية المكتشفة منها في انحاء سوريا الشمالية حيث تطورت اشكالها الدقيقة المبتدلة واخذت تقرب من اشكال الآنية المعدنية فتبسطت اعقابها وصار بعضها بطيئاً والبعض الآخر معقاً وكان الاحمر لونها الغالب الا انهم وسموا بعضها بتعاريج هندسية وبخمون اشجار ملونة كادت تضيع لونها الاصلي ثم اخذوا يكفونها باشكال بعض حيوانات مثل السمك والبط والسلاحف وما شاكلها ويطلونها بالميناء اللامعة فصارت في منتهى الزخرفة كما دلت على ذلك مجموعة آنية تل برسيب المحفوظة في متحف حلب وقد شبه العالم الاثري بوتيه بعضها بالخزف الصيلاني الجميل المكتشف في ايران

(الحفر على الاسطوانات) ومما برع الحثيون في صناعته الحفر على الاسطوانات . فقد عثر لهم على اختام ترتد الى القرن الخامس عشر ق. م على جانب عظيم من دقة الصنع كثيرة الزخرف وقد حفر على بعضها صور آلهة حثية عارية مثل آلهة الخصب وقد نقشت حولها احرف هيروغليفية حثية كما اكتشف في قبور كركميش اسطوانات حثية الفن ولكنها مشبعة بروح اجنبية حيث ترى بعضها مزداناً بنقوش آشورية واخرى بتماويذ مصرية وتصاوير آلهة وادي النيل، وقد برهنت هذه الآثار على مدى تأثر الحثيين في الامم التي اتصلوا بها

وقد يبقى بحثنا ناقصاً اذا تغاضينا عن ذكر مدى انتشار الفنون الحثية في سائر الاقطار الشرقية وتأثيرها في الحضارات التي ازدهرت من بعدها . تأييداً لانتشارها نذكر الصنم الحثي الذي عثر عليه في حفريات بابل بين آثار القرن الثاني عشر ق. م وهو يمثل الاله تحشوب بقميصه القصير وسيفه المعوج في خصره وحذائه المعكوف الطرف ولحيته الكثيفة وشعره المدرّج وقد لبس على رأسه تاجاً يعلوه قرنان وأمسك بيده فأساً مهدداً بالبطش والانتقام

كما ان تأثير الفنون الحثية في سائر الفنون القديمة تبدو في كثير من الامور أخصها قواعد الاعمدة اليونانية المزدانة بنقوش وتماثيل حيوانات معروفة بكونها من مبتكرات آسيا الصغرى . وفي خوذة الجندي اليوناني وسائر لباسه الذي يماثل ألبسة الجند المنقوشة على آثار زنجيرلي وفي تماثيل الآلهة المتصبة على ظهر حيوانات وفي غيرها من الاساطير الدينية وبعض الصناعات التي تسربت من الحثيين الى بحر ايجه فاليونان

وصفوة القول ان اكتشاف الحضارة الحثية قد أبان مصادر كثير من الفنون القديمة وأظهر الأواصر العديدة المتوثقة بين الاقطار الشرقية منذ أقدم الازمنة وأوضح فضل هذه الدولة العريقة التي اذكت شعلة المدنية قبل اربعة آلاف سنة وحملت قبراسها احقاباً طويلة في أحلك ظلمات القرون السحيقة